الفصل الثالث

جوانب نجيب الحداد

١ ـ آثار نجيب الحداد

تنتظم آثارَ نجيب الحداد ديوانٌ من الشعر اسمه « تذكار الصبا » يقع فى مئة صفحة وأربع صفحات من القطع الكبير وقصصٌ وروايات تمثيلية[١] تبلغ الثلاثين ما بين مؤلفة ومترجمة مزج فيها الشعر بالنثر ومقالاتٌ كثيرة زوّد بها الصحف وجمع له منها بعد وفاته « منتخبات » فى كتاب بلغت عدد صفحاته المئتين والأربعين صفحة من القطع الكبير .

والطابع العام البارز الواضح فى هذه الآثار كلها هو الشاعرية فقد كان الرجل شاعراً فى خلقه شاعراً فى نثره شاعراً فى شعره تغلب عليه الشاعرية فى كل أثر من آثاره مؤلفاً كان أم مترجماً ولو ابتعد موضوع ذلك الأثر من جواء الشعر وأفق الشاعرية فمن الظلم له أن يسلكه بعض مؤرخى الأدب فى عداد المترجمين أو فى عداد كتّاب القصة أو فى عداد الصحافيين ليس إلا . . . لقد كان الرجل صحافيًّا وكان مترجماً وكان من كتّاب القصة وضعاً ونقلا ولكن فعل كل ذلك بروح الشاعر طبعاً لا تطبّعاً فسواء نظم أم سجع أم ترسّل

---

(١) أشهر رواياته التمثيلية : « صلاح الدين الأيوبى » و « المهدى » وهذه من تأليفه و « روميو وجوليت أو شهداء الغرام » و « حمدان » و « السيد أو غرام وانتقام » و « البخيل » و « فيدر » و « الرواية الشعرية » وهذه من نظمه و « الرجاء بعد اليأس » و « ثارات العرب وهاتان من تأليفه و « قتل القيصر » و « سنا » و « بيرينيس » و « عداوة الأخوين » و « زاير » و « أوديب » و « عمرو بن عدى » وهذه من تأليفه و « حلم الملوك » و « ميلادى » و « الطبيب المرغم » .

وأشهر قصصه : « الفرسان الثلاثة » و « فرسان الليل » و « حديث ليلة » و « غرام واحتيال » و « غرام الأخوين » و « فضيحة العشاق » و « العاشقة المتنكرة » و « غصن البان » .

تدفّق الشعر على ألفاظه وأسلوبه من حيث يشعر ولا يشعر وليس له فى ذلك رأى ولا يدان فإنما هى الفطرة الشاعرة وفيضها المتدفّق المتدفّق يسيل حتى إلى القصص المترجمة بلهَ المسرحيّات فيرويها بماء الشعر فتنضر وتزدهر .

ولقد أنصفه جرجى زيدان إذ قال فيه : « ويجوز عدّه من الصحافيين ولكن الشاعرية غالبة عليه . »[١] وأنصفه شاعراً وبخسه حقه ناثراً الأب لويس شيخو فقال عن شعره ونثره : « وكان شعره أجود من نثره حذا فيه حذو الشعراء العصريين [٢] . »وقال عنه فى موضع آخر : « أما الشيخ نجيب فإنه أصاب بنثره وشعره فخراً بلغ به مبلغ الأدباء اليازجيين . . . وشعره من أفضل ما نظمه الشعراء العصريون . »[٣] وأنصفه المنفلوطى ففصّل الرأى فيه فقال : « كاتبٌ من أحسن كتّاب هذا العصر وشاعرٌ من أرقّ شعرائه ومترجمٌ من أقدر المترجمين على الترجمة السهلة الفصيحة السائغة . . . »[٤] وقال مثل ذلك فيه الأستاذ أحمد حسن الزيات فنعته « بالأديب الكبير والصحفى البارع والمترجم القدير »[٥] فوارى الشاعرية وراء خيلة الأدب لأنها فرع من فروعها على أن حكم زيدان يبقى هو الحكم الصحيح فلنجيب الحداد من فطرته وبيئته وعصره ما أرهف فيه الشاعرية وجعله فى طليعة شعراء عصره « فلا العصر هو كل شىء ولا الموهبة الفردية هى كل شىء والأمر الذى لا مراء فيه هو أن العصر لا يخلق الموهبة إذا هى لم توجد فى صاحبها وأن بعض العصور من الجهة الأخرى أصلح لإظهار المواهب والعبقريات . ثم إن العصر إذا لم يخلق الموهبة خلقاً فهو بلا ريب يوجهها ويهيئ لها أسباب تمامها واستوائها . . . »[٦] لقد كان نجيب الحداد صاحب موهبة ما فى ذلك شك وكان عصره مستعدًّا لتلقّى

---

(١) « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجى زيدان ج ٤ ص ٢١٣ .

(٢) « الآداب العربية فى القرن التاسع عشر » للأب لويس شيخو اليسوعى ج ٢ ص ١٦١ و ١٦٢

(٣) « تاريخ الآداب العربية فى الربع الأول من القرن العشرين » للأب لويس شيخو اليسوعى ص ٦٨ و ٦٩ .

(٤) « معجم سركيس » حرف الحاء رقم ٧٤٤

(٥) « تاريخ الأدب العربى » لأحمد حسن الزيات ص ٤١٩

(٦) « ابن الرومى حياته من شعره » لعباس محمود العقاد ص ٥٦ (الطبعة الثانية)

المواهب وإبراز العبقريات فتعاون هذان العاملان وشاركهما عامل ثالث له شأنه وله أثره وهو البيئة فكان نجيب الحداد الشاعر .

على أنه إذا تقصّينا آثار الرجل بعد أن استخلصنا منها طابعه العام صوّرته لنا تلك الآثار فى خمس صور :

١ — نجيب الحداد الوطنى

كان الشرق العربى الوطن الأكبر لنجيب الحداد لا يعرف فيه حدوداً ولا تخوماً ولا يعترف فى قرارة نفسه بالفواصل الجغرافية أو السياسية التى تقسم بلاد العرب إلى دول أو دويلات . ينظر إليها جميعاً على أنها وطن فرد للعرب أجمعين فاختلاف الأسماء وهمٌ من الأوهام وقيام الحواجز ضربٌ من الخرافة وتعدّد البلاد إنما هو تعددّ الأعضاء من الجسم الواحد فكأنه كان داعية لجامعة الدول العربية ما دام أبناء تلك الدول يؤلّفون أمة واحدة هى الأمة العربية وفى هذا يقول :

كلنا واحدٌ لنا وطن فر دٌ وإن عدّدت بنا الأسماء
إنما نحن هيكلٌ واختلاف إسم وهمٌ فكلنا أعضاء

ويأخذ هذا الوطن العربى الأكبر نصيبه من نفثات نجيب الحداد فبينا هى تتدفّق حبًّا وولاءً لمصر إذا هى تفيض حناناً إلى لبنان إذا هى تتفنن فى وصف دمشق وأرباضها وأهلها وكان إذا رأى بلداً من بلاد العرب قد حظى بجانب من جوانب الحضارة والرقى دفعته عاطفته العربية إلى أن يتمنى لكل بلد من تلك البلاد قسطاً مماثلا من ذلك الجانب .

تنهض مصر إلى الاستفادة من المخترعات الحديثة فتمدّ فى أرضها طرق الحديد وتجرى عليها القُطُر (١) والمركبات فيسجل شعره هذا الحدث فلا ينفض قلمه من وصفه حتى يختم قصيدته قائلا :

فلا برحتْ مصرٌ تسود بظلّهِ عسى أن تغار الشّام فى ذاك من مصر

(١) القطر : جمع قطار . والقطار من الإبل قطعة منها يلى بعضها بعضاً على نسق واحد ومن هنا أطلقت على قطار سكة الحديد .

وإذا نحن انتقلنا من التعميم إلى التخصيص رأينا عاطفته الوطنية موقوفة على مصر فمصر هى الوطن الذى فتح له صدره وأنزله منه منزلة الابن الحبيب فبرّ الحداد بمصر وأخلص لها فى حبه وجهاده فعبّر عن هذه العاطفة الصادقة فى قصائد تعدّ من عيون شعره .

ويوم يطرق بابه ملك الموت لينتقل به إلى العالم الثانى تعصر قلبه ذكرى الوطن الأول حيث مسقط الرأس ومدارج الطفولة وملاعبها ويعصف به الحنين إلى لبنان فيهتف حزيناً وهو محتضر ويودّع الدنيا ببيت واحد كان آخر ما نظم وهو :

ولى « النجيب » فأرخوا قبراً له قد مات مشتاقاً إلى لبنان

ب ــ نجيب الحداد السياسى

عاد نجيب الحداد إلى مصر بعد الثورة العرابية واختار الصحافة أو اختارها له القدر ميداناً لنشاطه وعمله وكانت مصر ترزح تحت نير الاحتلال فشرع قلمه ذائداً عن الحمى مدافعاً عن العرين يصبّ جامات نقمته على الظلم والاستبداد ويظل هذا دأبه فى الجرائد التى كتب فيها أو الجرائد التى أنشأها سواء أخذ العسف والجور بخناق مصر أم خيّما على ربوع الشرق العربى أجمع حتى إن السلطان عبد الحميد « طارد صحيفته وحرّج عليها الدخول إلى البلاد العثمانية كى لا يقرأها أفراد الأمة فيتنبهوا إلى أعماله ويكونوا مع الأحرار يداً واحدة عليه . »[1]

والسياسة صفة طارئة على نجيب الحداد فما هو من أهلها ودهاقينها ولا فيه ميل إلى تعاطيها ومزاولتها ولا إلى الكتابة فيها فأنّى للشاعر المغرّد أن يتوى فى مطاوى السياسة ويضرب فى شعابها المتعرجة فمقالاته فى السياسة إذن مقالات رجل حرّ مخلص صادق يجهر بما يُسِرّ ويجأر[2] بما يثير ويطلقها كلمات مدوّية تنبعث من قلب أبى الضيم لا ينام على الأذى ولا يسكن إلى الظلم والاستعباد .

ولكن الصحافة اليومية مهمتها الأولى هى السياسة فلا بد له إذن أن يخوض

---

(١) « تاريخ الصحافة العربية » للفيكنت فيليب دى طرازى ج ٤ ص ٢١٨

(٢) جأر : صاح

غمراتها ولو كره وأن يقف بالمرصاد لألاعيبها يكشف منها عن الزيف والباطل ويوجه أبناء وطنه إلى سبيل العزة والكرامة وإلى طريق الكفاح والجهاد .

وعندما يملى عليه القدر أن يحوّل جريدته « لسان العرب » اليومية إلى مجلة أسبوعية نجده يتحرر من ربقة السياسة وينطلق فى رياض الأدب شادياً مغرّداً فيسمع لشدوه وصداحه أجمل الأصوات والأصداء .

ويجمل بنا ونحن نتكلم على الصحافة والجريدة والمجلة أن نسجّل لواضعى هذه الألفاظ فضل وضعها وتحميلها المعانى المعروفة بها اليوم .

فكلمة « الجريدة » من وضع أحمد فارس الشدياق .

وكلمة « المجلة » من وضع إبرهيم اليازجى .

وكلمة « الصحافة » من وضع نجيب الحداد[1] .

ج ـ نجيب الحداد الاجتماعى

صوّر نجيب الحداد عصره تصويراً صادقاً فالكتّاب والشعراء هم فى كل عصر قادة الرأى والفكر وأقلامهم هى الأبواق التى ينفخون فيها أصوات الرضى مرّة وأصوات السخط مرة أخرى ويذيعون منها نغمات الرقى والإصلاح تارة وألحان الحوادث والظواهر تارة أخرى .

ونجيب الحداد كان قلمه أحد أبواق العصر نفخ فيه مختلف الأصوات والأنغام مصوّراً الحياة الاجتماعية فى عصره .

تطغى على مصر فى عهده بل على الشرق العربى أجمع موجة من الحضارة الغربية فيحمد لها خيرها ومحاسنها ويندد منها بالقبيح المستهجن الذى عصف بالأخلاق والعادات العربية وكان أدواء اجتماعية سرت فى جسم الأمة تنفث فيه السم الذُّعاف . وعزيزٌ على من يتصدّى للإصلاح الاجتماعى أن يرى العدالة الاجتماعية معصوبة العينين مغلولة اليدين منكسة العلم فهبّ يرفع رايتها ويفكّ وثاقها وينزع عن عينيها العصابة التى حجبت عنها نعمة النور

(١) « تاريخ الصحافة العربية » للفيكنت فيليب دى طرازى ج ١ ص ٥ و ٧

فاقرأ له مقاله « الغنيّ والفقير » ومقاله « الخادم والمخدوم » تقف منهما على نضاله فى هذا الموضوع العظيم الخطور والخطر .

وتتفرّع على هذه العدالة عدالة أخرى هى أن تصون الدولة للمؤلفين والمتفننين حقوق التأليف فقد بدأ الحداد يطالب الحكومة بسنّ قانون لحماية التأليف وها نحن أولاء بعد بضعة عقود من السنين لا نزال من هذه الأمنية حيث كان نجيب الحداد[1] .

ومسألة تحرير المرأة كانت أيضاً من المسائل التى شغلت الأذهان فى عصره وناز ع القوم فيها الإقدام والإحجام غير أنها لقيت من نفسه هوى غالباً فقد عنى الحداد بتحرير المرأة وتعليمها وعنى بمشكلاتها ونادى برأيه فى هذا الموضوع غير هيّاب ولا وجِل ولعله مهّد لمن جاء بعده فأمعن فى الجهاد والنضال .

ويصفه الدكتور إبرهيم عبده بأنه «أول من عنى بمشاكل المرأة» وعندما يتكلم الدكتور عن نصيب جريدة الأهرام من الدعوة لنهضة المرأة وقد كان نجيب الحداد أحد كتابها يقول : «اقرأ فى الأهرام فصولا ممتعة عن حقوق المرأة من أقلام مصاحفيها أو محرريها ولن تجد فى هذه الفصول توجيهاً إلى طفرة بل إن كاتبنا — وهو هنا نجيب الحداد — يشرح حقوق المرأة فى أوربا ثم إذا فرغ من الشرح اتجه إلى مواطنينا محدثاً قراءه بأن " . . . تلك حالة النساء فى بلاد الغرب نوردها لمن عندنا عسى أن يكون فيها بعض التنبيه على الحمية والحضّ على الاقتداء والغيرة فإن القدوة يجب أن نكون فى كل تقدم وارتقاء لا أن تكتفى نساؤنا فقط بقدوة اللسان فى الألفاظ ومحاكاة القدود فى الأزياء وعسى أن تدخل هذه الغيرة بيننا فقد عهدنا مقر الغيرة ومقامها فى قلوب النساء"[2] ».

د — نجيب الحداد الأديب

كان نجيب الحداد أديباً فى كل ما تحتمل هذه الكلمة من معان فإذا

---

(١) طالع فى « منتخبات نجيب الحداد » مقالا له فى هذا الموضوع عنوانه : « حق ضائع » . على أن هذا القانون المنشود قد صدر بمصر فى يونيو (حزيران) سنة ١٩٥٤ .

(٢) كتاب « جريدة الأهرام » للدكتور إبرهيم عبده ص ٢٣٦ . والفقرة المنسوبة إلى الحداد من مقال نشر بجريدة الأهرام فى ٢٨ من أبريل ١٨٩٣ .

اختُلف على معنى الأدب والأديب وتضاربت الآراء فى وصف الأدب والأديب فآثار الحداد الأدبية تجمع تعريفات الأدب والأديب من جميع أطرافها ففيها اللفظ الصافى والأسلوب الرصين والمعارف الإنسانية وفيها الخيال الخصب والجمال المترقرق وفيها الوقع والتأثير ومهزّة النفوس إلى الخير والحق والجمال .

ولقد جال الحداد فى ميادين شتى من الأدب فبرّز فى أدب البحث مغترفاً من نبع ثرٍّ فيّاض من علوم العرب وعلوم الغربيين فإذا رأى الرأى أو أصدر الحكم شعر القارئ أن وراء ذلك الرأى وذلك الحكم ذخيرةً من المعارف لا تسلس قيادها إلا للمتمكن الضليع .

وجوّد فى أدب المقالة وكانت فى عصره الطراز المعلّم فى الكتابة والإنشاء وحلاّها بالسجع تتشرّبه الأفهام سلساً سائغاً قويًّا رصيناً لا قلق فيه ولا تكلف وعرّج من أدب المقالة على أدب الوصف فكان شاعراً فى نثره تقرؤه فلا تتمالك أن تصيح صيحة حسّان وتقول : شعر ورب الكعبة[1] . وآثار الحداد مملوءة بالنثر الموشّع بالألاء الشعر .

وكان لنجيب الحداد فى أدب المسرح القِدح المعلّى فإليه يعود الفضل فى شدّ أزر المسرح العربى وتزويده بالروائع والنفائس مترجمة ومؤلفة . لقد بدأت قبله المحاولات وخاض الأدباء هذا الميدان الجديد فما إن يتسلم الحداد الراية حتى يجرى بها إلى قصىّ الغايات فلولا تمكنه من اللغة والأدب ولولا قريحته الخصبة الجيّاشة ولولا السهولة التى ينظم بها وينثر ولولا البلاغة التى تعنو لقلمه خاضعة مطواعة لتأخرت نهضة المسرح جيلا برأسه ولو أنسأ الله فى أجله لظفر المسرح منه ولا شك بثروة ضخمة تزيد أضعافاً مضاعفة عن الثروة التى خلفها له[2] .

ولم يغفل نجيب الحداد شأن أدب القصة فقد عنى به وأتحف القرّاء فى عصره بل المكتبة العربية على الإطلاق بطائفة صالحة من القصص

---

(١) سمع حسان ابنه يصف الحيوان الذى لسعه بقوله : « كأنه ملتف فى بردى حبرة » فصاح : « شعر ورب الكعبة» . ومن هذا القبيل وصف «شاتو بريان» لكتاب « تلماك » المنثور بقلم « فنلون » فقد قال عنه : إنه من بليغ الشعر .

(٢) توفى نجيب الحداد فى الثانية والثلاثين من عمره وترك للمسرح نحو ثلاثين رواية .

المؤلفة أو المترجمة فإن أخذ عليه بعض النقّاد تصرّفه فى الترجمة[١] فإنما تصرّف فى التعبير لا فى المعانى نزولا عند أحكام البلاغة العربية والذوق العربى وقد أشار إلى ذلك فى مقدمة راوية « الفرسان الثلاثة » .

وكأنما الترجمة قد شحذت قريحته فعكف على التأليف وشغل العقول والقلوب بروايات فاتنة آسرة من مثل رواية « غصن البان » وإليك ما يقوله عنها صديقه طانيوس عبده : « وله أيضاً رواية " غصن البان " وهى رواية عواطف ووجدانات أبدع فيها ما شاءت البلاغة فى وصف الشعائر وإظهار وجدانات النفس ببيان لم يسبقه إليه سواه من كتّاب العرب ولم يطرقه غيره من كتاب هذا العصر لصعوبة هذا الموقف وقد ضاهى فيه أشهر كتاب الإفرنج كما تشهد بذلك هذه الرواية وأكثر رواياته التمثيلية . ولهذه الرواية نكتة لا بأس من إيرادها وهى أن واحداً من كبار القوم قرأها ففتن بها وآلى على نفسه حلفة صادق أن يقبّل يد كاتبها ولم يكن له معرفة شخصية به فما زال يسأل عنه حتى لقيه فى مجلس حافل بالأدباء فبرّ بيمينه وأخبر القوم بما دعاه إلى تقبيل تلك اليد »[٢] .

بقيت جولاته فى أدب اللغة والعلوم اللسانية فأثره فيها موزع بين مقالات يذود فيها عن حياض اللغة كمقاله « لغة الدواوين » وبين أجوبة لغوية أو صرفية أو نحوية يردّ بها على السائلين أو يجيب عن اقتراحات المقترحين أو يفوز فيها بالجوائز وينال قصب السبق بين المتبارين وأمثلة هذا كله منشورة منثورة فى المجلات الأدبية .

ويبقى بعد ذلك أدب الفلسفة أو أدب الحكمة أو خطرات فى الأفكار يصوغ بها تجارب النفس ويقيّد بها الحكمة الشاردة والرأى الخمير وفى «منتخباته» نماذج من هذا كقوله : « مهما اجتهدت المرأة أن تقلد الرجل فجلّ ما تصل إليه أنها لا تصير رجلا ولا تعود امرأةً » . وكقوله : « السبب فى أن النساء أعفّ من الرجال أن المرأة ترى الخيانة انكساراً والرجل يراها فخراً » .

---

(١) « حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر » لجاك تاجر ص ١٥٠ .

(٢) مقال طانيوس عبده فى ذيل الديوان .

هـ ــ نجيب الحداد الشاعر

نصل بعد هذه الجولة فى الترجمة لنجيب الحداد إلى خاتمة المطاف وهى فى الحق مستهل المطاف إلى خاتمته . نصل إلى نجيب الحداد الشاعر وإن كنا لمسنا فى النثر المحيط بكل صورة من الصور الأربع السابقة قبساً من الشاعرية يتألق فيها فتلألئ به .

١ ــ الشاعر الاتباعى

طبيعة المرء فى كل فن وعلم تحدوه أولا إلى الاستيعاب والمحاكاة فإذا ارتوى غليله وقسا عوده استقل بالطريقة التى توحى بها إليه عبقريته وفنه الأصيل فلا عجب أن يطرّس الحداد على آثار الأقدمين من شعراء العرب فيبدأ بعض قصائده بالغزل فيذكر العذيب ورنده وأطلال العقيق وأخفاف الرواسم والطلل النحيل بالرقمتين ويصف الحبيب بالخصر الضعيف والردف الثقيل وجفن الطرف السقيم إلى مثل هذه الطوابع التى يحفل بها الشعر القديم فما هو إلا أن تستقيم له فى الشعر طريقة وفن يتجاوبان والعصر الذى يعيش فيه ويتساوقان والحضارة الجديدة حتى نسمع منه هذه الصيحة وهو يصف السيدات فى المركبات :

صاح هذى هوادج الحضر اليو ... مَ فخلّ الهوادجَ البادياتِ
ودع النوقَ والفلاةَ فلا نو ... قاً بأحيائنا ولا فلواتِ
ودع العيسَ والحداءَ لقوم ... ألفوا عيسهم وزجر الحداةِ

وهو يوم يتحرر من رواسم القديم وخصائصه اللفظية لا يتحرر من بعض أبواب الشعر المعروفة كالمدح والرثاء والإخوانيات ولكنه يقصرها مع قلتها على العاطفة الصادقة والشعور الأخوى فلا يمدح إلا صاحب فضل ولا يرثى إلا صديقاً أو حبيباً ولا يساجل إلا الأخ الناصح الودود أو القريب الذى يخصه فى فؤاده بالتجلة والمحبة .

وكان من عادة الشعراء فى عصره أن ينظموا التواريخ الشعرية ويتفننوا بها فجرى هو أيضاً فى هذا المضمار واجتمعت له من هذه التواريخ طائفة مشت فيها الشاعرية والتاريخ جنباً إلى جنب فمن عادة التاريخ الذى يعتمد على حساب الجمّل أن يطغى على الشاعرية ويزيحها عن مكانها ليحلّ محلها ولكن التاريخ والشاعرية كانا فى شعر الحداد توأمين فى الحسن والبهاء .

٢ – الشاعر الغنائى

وتنتفض الشاعرية بعد ذلك فى جوانح نجيب الحداد فإذا هو شاعر غنائى من الطراز الرفيع متأثّرٌ شعراء العاطفة فى العصر الأموى وصدر العصر العباسى تأثُّرَه شعراء فرنسا العاطفيين فى القرن التاسع عشر من مثل «موسه» و« لامرتين» .

ويذهب الأستاذ مارون عبود إلى أن الحداد « فى نظمه الهين اللين متأثر جداً بجده المرحوم ناصيف اليازجى وهذا ما يؤيد مزعم النقادة الفرنسى "تين" فى العرق . انظر إلى ديباجتيهما فتحسب أنهما نسجتا على نول واحد فى شعر نجيب سهولة وبساطة كلام جده . » [1] ولئن كنا نرى رأى الأستاذ الكبير فى الفطرة والعرق وقد فصّلنا ذلك فى الكلام على تأثر الحداد وتأثيره إننا لا نرى رأيه فى ديباجة الشاعرين فحسب الوراثة أن تنقل الشاعرية من سلف إلى خلف ولا يشترط فيها أن تنقل الجانب الغلاب من تلك الشاعرية فالشيخ ناصيف اليازجى متنبى الديباجة فحل الأسلوب يخلو شعره من الهنوات التى نجدها فى شعر نجيب الحداد خلوّه من الرقة والعذوبة المترقرقة فى شعر حفيده فالنجيب نسج على نول كثيّر وجميل وأبى نواس إلا مجونه من المتقدمين وعلى نول البهاء زهير من المحدثين على أنه أسمى من البهاء معنى وألطف أداءً وإنما يشتركان فى الرقة والسلاسة .

أبدع نجيب الحداد فى الشعر الوجدانى وهذا الضرب من الشعر شعر

---

(١) « رواد النهضة الحديثة » لمارون عبود ص ١٥٣ .

الوجدان لا يجيده إلا من كان مثل النجيب رقيق القلب سمح الطبع معذّب النفس فهو إذا صبا ولها وعبث أو إذا شكا من الدهر ومن الناس أو نفّس عن صدره بالنفثات والزفرات أو رثى حبيباً أو عزيزاً سال فؤاده قطرات تسكبها عيون الألفاظ والقوافى وأودع روحه معانيه فنبضت بالحب والوله والجوى وهكذا يكون الشعر الحىّ الخالد على الدهر ولن يخلد شعر الوجدان إلا إذا كان قطعة من القلب وخفقات من الروح .

وشاعرنا كان شاعراً مجدّداً غير أن تجديده لم يبنه على أنقاض اللغة والأسلوب العربى فقد وسعت ألفاظه وأسلوبه وهما من لغة الضاد فى المقام الأثير وسعت الجديد من المعانى والموضوعات فاختال فى ثوبه العربى الرصين وبدا أجمل ما يكون مظهراً ومخبراً . رأى الحداد أن الغرب كثير الحفاوة بالشعر القصصى وأن هذا الطراز من الشعر ليس غريباً على قرائح العرب فنى تراثنا منه أمثلة تتموّج فيها الشاعرية بماء الحسن والجمال ولكنها فى نطاق ضيّق محدود فهبّ يبعثه من مرقده ويحتذى فيه شعراء الغرب فطوّع له أولا الموشحات ثم رأى أن القافية العربية لا تضيق بالقصة أو الحكاية وأن البيان العربى وهو البيان الغنى بوجوه التعبير كفيل أن يؤدى معانى الخاطر وخلجات النفس ومناجاة الفؤاد خير أداء فاعتمد على القافية السمحة والبيان الثرىّ وأخضع لهما السرد والحكاية وساعدته الشاعرية على السمو والترفع فجاء شعره القصصى حلواً عذباً قويًّا رصيناً يهزّ القلوب ويشجيها .

وشاعرنا كذلك شاعر وصّاف بل شاعر مصوّر يقدم لك المعنى حيناً فى صورة خاطفة ويقدمها لك أحياناً فى صورة موفورة الأضواء والظلال يمعن فى رسمها إمعاناً فلا يفوته من المعنى المرسوم أخفى الدقائق فهو فى هذا يجارى ابن الرومى فى تقصّى المعنى فلا يترك منه شاردة ولا آبدة وديوانه مفعم بهذه الصور نذكر منها قصيدته فى وصف القمر فقد بلغ فيها غاية التجويد والإبداع .

ولقد يعتمد أحياناً فى الوصف لا على الحال المجردة ولا على الخيال المبتكر بل على العلم ومسائله المقررة ولكنه يتناولها بريشة الرسّام وعبقرية الشاعر فيلوّن بها شعره ومن ذلك قوله :

والدمع مهما اغتدى رخيصاً يغلو إذا باعه الكرامُ

كقطرة البحر وهى ملحٌ تحلو متى صبّها الغمام[1]

ويعزّ علينا أن يحول ضيق المقام دون الاستشهاد بل الإكثار من الاستشهاد بشعره الرقيق الرائق المصفّى فلا أقل إذن من أن نعرض عليك بعض الصور.

قال فى الحسان اللواتى احترقن فى سوق الشفقة بباريس :

كنّ ناساً فصرن ناراً فأصبحـــــن رماداً بها فصرن هباءَ

وقال فى إنحسار الليل وطلوع الصباح :

إلى أن بدت كفّ الصباح برايةٍ تلوح على جند من الليل مسودّ

وغابت مصابيح النجوم كأنما طفاها نسيم الفجر من فمه الوردى

وقال فى عادة إهداء دواوين الشعر إلى من لا يفهمه من أرباب المال :

من كل غرٍّ له يتلى القريض كما تتلى الصلاة على آذان سكرانِ

وقال فى العالم المتواضع :

كالضوء يصغر جرمه فى نفسه ويفيض عنه النور من مصباحهِ

وقال فى لغة العيون :

واللحظ ينطق والشفاه صوامتٌ لغةٌ تخط عيوننا كلماتها

ومن هذه القصيدة الصورة الجميلة الآتية :

عاتبتها فتحدّرت من جفنها درر وددتُ أكون من قطراتها

ورنت إلىّ فقابلتها أدمعى فكأنها نظرتْ إلى مرآتها

وقال فى حسناء سوداء الشعر :

بيضاء يحدق شعرها بجبينها فتريك عين الصبح فى وجه الدجى

ومن الأبيات الرقصة قوله :

وقاسمتُ من أهوى فؤادى والهوى فكان فؤادى عندها والهوى عندى

إلى كثير من هذه الصور والغرر .

---

(١) هذا المعنى طرقه الشاعر القديم فقال :

كالبحـــر يمطره السحاب وما له فضل عليه فإنه من مائه

ولكن الحداد استخدمه فى معرض غير معرض الشاعر القديم وفصله تفصيلا جديداً وأدخل فيه عنصرين جديدين هما الملوحة والحلاوة فزاداه روعة وجمالا .

والحداد شاعر خدم المسرح خدمات جليلة لانزاع فى ذلك ولا جدال وخصّ المسرح بجانب كبير من شعره تضمنته أغلب رواياته على أن لواء السبق فى الشعر التمثيلى معقود لخاله الشيخ خليل اليازجى صاحب رواية « المروءة والوفاء » فقد أتم نظمها فى سنة ١٨٧٦ وهو أول من سلك هذا المسلك ومثلت روايته وطبعت غير مرة ويقول فى هذا جرجى زيدان : « ويمتاز الشيخ خليل عن سائر شعراء هذه النهضة بعمل لم يقدم عليه سواه نعنى تأليف رواية "المروءة والوفاء" وهى شعرية تمثيلية مبنية على حكاية حنظلة والنعمان تجدّى فيها كبار كتاب الإفرنج فى وضع الروايات التمثيلية فى الشعر »[1] .

ومن آثار نجيب الحداد رواية شعرية ذكرها طانيوس عبده فى جملة الروايات التى ألفها نجيب الحداد أو ترجمها وقال إنه « احتذى فيها مثال خاله المرحوم الشيخ خليل اليازجى فى روايته المروءة والوفاء »[2] وعبثاً حاولنا أن نجد السبيل إليها فى المراجع والمظان المصرية وكيفما كان الأمر فثلاثة أرباع شعر نجيب الحداد منظوم فى رواياته والشعر فيها ممدود الجناح يرف على الحوار ويرفرف بالنجاء وخواطر النفس وكفى بهذا كله فضلا يطوّق عنق المسرح بقلائد الشعر العذب الرقيق .

٢ – منزلة نجيب الحداد

وبعد فمنزلة نجيب الحداد من الأدب القومى منزلة قائد من قوّاد النهضة أخلص لوطنه وأمته وأخلص لفنه وأدبه فمشى قُدُماً فى ساحات النضال خفّاق اللواء موفور العتاد يشكّ علم النبوغ والعبقرية فى أعالى القمم ويمهد السبيل لمن يسير بعده فيزيل منها الشوك والعوسج ويغرسها بالورد والريحان .

---

(١) « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجى زيدان ص ٢٠٧ (الطبعة الثانية) .

(٢) مقال طانيوس عبده فى ذيل الديوان .

ويوم يذكر الوطن والأدب النبغاء النابهين والمكافحين المجاهدين فى الربع الأخير من القرن الماضى سوف يتعطر لسانهما بذكر النجيب فقد كان لهما الابن البار قدّم نفسه قرباناً على مذبحهما وبقيت روحه المنارة تنير بشعاعها الجوّال آفاق الحمى فتهدى السَّراة والمدلجين[1] .

ويوم يحلو للشرق العربى أن يقلب صفحات التاريخ الحديث ويطالع الأسماء فى سفر العاملين الخالدين سوف يجد اسم نجيب الحداد مكتوباً فيه بأحرف من نور هو ضياء عينيه وضرام قلبه ونفسه وشعلة مواهبه المقدسة .

لقد كان نجيب الحداد الشاعر الذى تغنى بآمال وطنه ونشج بآلامه وكان الكاتب الاجتماعى الباذل لأمته بمنعرج اللوى النصيحة الحرة الخالصة وكان الأديب الذى وطّأ أكناف الأدب للجمهور وأدنى له منه القطاف والمجانى فى نثر تناثرت فيه درر الفكر ونظم انتظمت فيه المعانى الحسان مقدودة من العاطفة المشوبة والوحى النضير .

فمنزلة نجيب الحداد فى قومه منزلة العامل المجدّ والمتفنن المجدّد سار فى طريق الرشاد والسداد وتبعه المعجبون والمريدون فكان عنواناً من عنوانات النهضة فى أخريات القرن التاسع عشر . ولئن طاب للغرب أن يفخر بشعرائه الغنائيين إن الشرق العربى ليطيب له أن يزهى بنجيب الحداد الشاعر الغنائى الذى تسلكه الشاعرية فى عداد المشهورين من الشعراء الغنائيين .

لقد كان قلبُ الإنسان محور شعره فسبر منه الأغوار وسمع فى دقاته خلجات الحزن والطرب وخفقان السخط والرضى ولمس فى عاطفته بدوات الفضيلة ونزوات الرذيلة فصهر كل هذا فى بوتقة الشعر وصاغ منه القصائد الخافقة بنبضات قلب الإنسان فكان شاعر الإنسانية فى عصره وفى كل عصر وحسبه ذلك فخاراً فى مجال المباهاة والفخار .

---

(١) السراة : جمع سار وهو السائر ليلا . والمدلجون : جمع مدلج وهو السائر من أول الليل أو فى آخره .